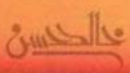


غريب

(رواية)

محمد جربوعة



تقديم الدكتور عائض القرني



سلسلة اليقين الروائية

فكرة وإشراف: سعيد بن صالح الغامدي



غريب

«روايــة»

محمد جربوعة

تقديم: د. عائض القرني

مؤسسة اليقين الإسلامية للإنتاج الإعلامي


غريب


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة..

بقلم د. عائض القرني

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه، وبعد:

اطلعتُ على الروايات التي قدمها لي الأخ الأستاذ سعيد ابن صالح الغامدي، رئيس المركز العالمي للاستشارات الإستراتيجية، للكاتب الإسلامي الأستاذ محمد جربوعة فأسرني وهجها الذي يكاد يذهب بالأبصار... وما أدري هل أعجب من السحر المذاب والشهد العجاب في تفاصيل جُمَلِها وفي نسج حللها، أم أعجب من الغيث المدرار والسيل الموار في متون معانيها وجلالة مبانيها...؟! حينها آمنت أن الأمة لا زالت منجبةً وَلودا، تقدّم للبشرية روادا في الدراية وأساتذة في الرواية.

إن الكلمة الجميلة والرواية الآسرة عمل إبداعي أجمل من وشْيِ برود الحرير، وأعذب من حباب الماء النّمير، وإن الحرف الباسم والجملة الهائمة أمتع من أنفاس فجر ربيعي في خميلة ندية، وألذّ من سرّ محبٍ من فمٍ حلوٍ إلى أُذن مشتاقة...

ولما قرأتُ هذه الروايات طاف بي خيال الذكرى إلى

مراقي الصعود في سلَّم المجد لهذه الأمة، وناجاني نداء الهمّة، يوحي إلي بحِكَم دبّجتْها يد كريمة، وقلم بارع، وقلب ذكي، فالتقى ماء الصدق مع تربة النُّبل، في أرض الطهر، فإذا شجرة الإتقان وارفة بظلال الإقناع وأوراق الإبداع وأغصان الإشعاع...

فشكرا لمن كتب... وهنيئا لمن قرأ... وطوبى لمن وعى...



يتذكر وصية أبيه.. وتتردد كلماته في أذنيه:

– حافظ على قراءة القرآن يا بني...

مرّ على ذلك سنوات، لكن إيقاع الكلمات لا يزال رطباً ندياً، كأنه لم يمرّ عليه عشيّة أو ضُحاها...

تهزه الكلمات من الداخل، ويسرح بخياله يستعيد وجه الرجل الذي كان يراه عظيماً كجبل... يحمله بين يديه ويرفعه إلى أعلى... كان السرور المشوب بالخوف من الوقوع يغمره، يأخذ عليه مجامع نفسه.. يحس نفسه طائراً يسبح في الفضاء الرحب، فيضحك... وحين يُنزله، كان يتشبّث بثيابه يطلب منه أن يرفعه مرة أخرى إلى عالم النشوة.

لكن الأب يهرب جاراً وراءه سنواته الخمس والثلاثين فيجري وراءه هو تحمله سنواته الخمس.. يتذكر كل ذلك وتتفرج أساريره عن ابتسامة قديمة تستخرجها شفتاه من كيس ذكرياته، تماماً كما يستخرج شخص ورقة متآكلة من صندوق عتيق عزيز عليه.

ويُتمتم:

– أبي...

تمتد يد إلى كتفه تستخرجه من جُبِّ الماضي.. يستدير منتبهاً:

– أبي...

- أبوك؟ أنا أمك يا غريب...

كان ذلك اسمه الذي أخذت أقداره شكله، تماماً كما يأخذ الماء شكل الإناء الذي يُصب فيه...

- أمي؟!!!

كانت واقفة خلفه، لم ترفع يدها عن عاتقه الصغير المثقل بأعباء الحزن.

- ما بك يا بني؟

لم يرفع رأسه، استدارت حوله لتجلس في مواجهته، رفعت عن جبينه خصلة شعره الجميلة، وقرأت في عينيه دواوين من الانكسار الفصيح...

- غريب، ما بك يا بني؟

- هزّ رأسه يميناً وشمالاً، ماطاً شفتيه، وهو يقول بتنهيدة حزينة:

- لا شيء يا أمي...

الأشياء الكبيرة لا تفسّر بكلمات قليلة مبعثرة ضعيفة.. ويبقى الصمت أقرب إلى تفسيرها..

صمته يقتلها، يطعنُها، يخترقُ جنبها الأيسر.. منذ سنوات وهو يحمل سرّه ملفوفاً في خرقة صمته.. يضيق بما حوله، ويضيق عليه ما حوله.. وحين يحسّ أن وطأة الظلم قد قاربت

كسر قامته، ينظر إلى عيني أمه بعينين مغرورقتين بالماء والملح، ثم يطأطئ رأسه دون أن يقول شيئاً..

ولم تكن الآن تسأله لتعرف، بل لتهوّن عليه، وضغْط الصدور لا يُنفس إلا خلال ثقوب الكلمات.

– تكلمْ يا غريب.. تكلم يا حبيبي، تكلمْ.. ما بك؟!

كانت الثقوب أضيق من أن تُسرّي عنه وتخرجَ ما يمور به صدره ووجدانه، واحترمت صمته، فضمت رأسه إلى صدرها، وأحس أنه في حاجة إلى أشياء أخرى. صحيح أن حنان أمه كان يدثر قلبه في فصول الحزن، لكن القهر كان خنجراً يصل إلى مقاتله، يخترق صدره، وأحياناً يخلص إلى صدر أمه أيضاً إذا هي حاولت حمايته فضمته إليها..

وحين يخترق الخنجر جسدين متعانقين، فإن الألم لا يتوزع مناصفة بينهما، بل يكون كاملاً في كل صدر مخترق.

كان اغترابه اغتراب سنديانة لا تعرف جذورها سوى تراب وماء وهواء موطنها الأصلي.

وجاءت به أقداره تعْرُج، إلى حيث النار والسفود..

– غريب ابنك يا زينب، إنه مُعقد، مريض نفسياً، لا يستوعب ما نقول..

هذا ما كان يقوله خاله، متظاهراً بالحرص على مصلحة الصغير، ليبرر ما يصب عليه من النّهر والقهر.

– وتضيف زوجة الخال: انظري إلى ابني باسم، إنه رائع، عيني عليه، كم هو رائع!!! لا ترينه إلا ضاحكاً سعيداً.. يعيش طفولته. ويعبُّ من مُتعها ولهوها عباً..

كان الليل ينزل على المدينة، وكان هو يسند خده بيده، يتأملها من خلال الشرفة، هذه المدينة صامتة مثله، تحمل أسرارها هي أيضاً، وتحس بما يحس، تتذكر ذكرياتها الرائعة الماضية، ذكريات الذين سكنوها ذات يوم، تنفسوا هواءها، وكبرت فيهم كما كبروا فيها خضراء متوضئة، واليوم لا غير القهر والصمت.

أحس وكأنها شقيقته، ورآها تمضغ ما يمضغ، صامتين كانا، هو والمدينة، ينظر أحدهما إلى الآخر، يفهم أحدهما أخاه، لكن لا كلام، ومع مجيء الليل تأتي الأسئلة المؤرِّقة:

– أين أبي الآن؟ وجديّ؟.. وجدتي؟ ولماذا أنا هنا عند أخوالي؟.

ولماذا يثور أخوالي على كل ما علمني أبي من قيم؟ لماذا يستهزئون بصلاتي، ويسخرون من قراءتي القرآن؟ أمعهم حق؟. أم أن الحق في الذي علمني أبي؟!

تتصارع في جوانحه الكلمات القديمة والجديدة، ويحس بالدوّامة الجبارة تأخذ رأسه، تدور به دون رحمة، كقشة زوبعة متصاعدة نحو السماء.

– الحق مع من؟ وماذا علي أن أفعل؟

ويرتفع الصوت العتيق الذي كان يعرفه منذ كان مع أبيه.

الله أكبر.. الله أكبر

ومن بعيد رمق المئذنة التي تطيّره رائعاً عبقاً.. وقام ليتوضأ ويصلي المغرب.

– على العشاء كانت عين أمه عليه.. والمسافة التي تقطعها الملعقة بين الصحن وفمه كانت تبدو طويلة مُضجرة، وفي فمه تصارع نفسُه مرارةَ اللقمة، يلوكها كما يلوك امرؤٌ قلبَه.

ويخطف بصره إلى الوجوه يقرأ فيها ما ينعكس عليها مما تحمله القلوب.

كان يسرق لقمة المنّة، ولا تكاد معدته تمتلئ من الطعام حتى يمتلئ قلبه من الحزن، وهو شفاف لأمه، ترى من ظاهره ما يختلج في باطنه، وتقطع الصمت:

– غريب، كُلْ يا حبيبي.

يرفع بصره نحوها متكسراً ثم ينزله، وتتبادل الأعين الأخرى النظرات.

قال خاله:

– ليتك تنتج بحجم ما تأكل!!

ودون أن يرفع رأسه، وضع الملعقة، واجتهد في ابتلاع آخر لقمة كان وضعها في فمه قبل أن تخترقه كلمة خاله كخنجر مسموم..

– أتمّ عشاءك يا حبيبي.

قالت أمه، وقد احمر وجهها، وأحست بالزلزال يهز كيانها حين رأت دمعة تسقط من عينه على الطاولة، وصمتت، ليكمل الآخرون عشاءهم.

انسل إلى الغرفة التي ينام فيها مع أمه، أوى إلى فراشه، غطى وجهه باللحاف. وراحت الكتلة المقهورة تستحضر الأيام الخوالي.

لقد صار مدمناً لهذا الهروب من واقعه، ولعل ذلك كان يسري عنه بعض ما يجد من الظلم والتضييق، الجملة ذاتها تأتيه شفافة هلامية:

– القرآن يا بني

دخلت أمه، اقتربت من سريره، جلست إلى جانبه، وكشفت عن وجهه اللحاف، وهوت عليه تمسح جبينه بيدها، وتقبّله.

– غريب...

وقاطعها:

– أمي لماذا سميتموني غريباً؟

ربما كان الأولى أن يقول: لماذا أنا غريب، لكن تداخل الاسم بالواقع، كان يجعل السؤالين سؤالاً واحداً.

– أمي...

– نعم يا حبيبي.

– أين أبي؟!!

تنهدت ورفعت بصرها إلى السماء مغمضة عينيها، أسندت رأسها إلى الجدار بعد أن انتقلت إلى سريرها، وجرفها موج التفكير إلى اللجة العاتية، فغرقت فيها، ونسيت سؤاله.. كانت تفكر في زوجها، تستعيد وجهه الهادئ، ونظراته العميقة التي لم تكف يوماً عن الإطلال عليها من كل زاوية، كان عميقاً مثل محيط... شامخاً مثل جبل، ثابتاً مثل أبنوسة متجذرة في الأرض، وحين حاصرته الأسلاك وعضّته القيود ظُلْماً بقيت الأبنوسة بين الأسلاك كما كانت، وظل البحر في جنبيه عميقاً. ولم يفارق شموخ الجبل أنفه وجبهته...

خمس سنوات قضاها في السجن، لا لشيء إلا لأنه قال: إن الله موجود في السماء وإن ظله يجب أن يكون في الأرض، وواجهه الذين اقتسموا مع الله الكون، فحاصروه في السماء واستأثروا هم بالأرض.

وخال غريب كان من دعاة «الأرض لقيصر»، لذلك فقد

ذهب إلى أبي غريب في السجن يطلب منه الكفر أو طلاق أخته.

ورفض أبو غريب... وفرض الخال على أخته ترك بيتها لتعيش معه، كون زوجها لا يشرّفه، وقد يمس مصالحه.

واحتفظ أبو غريب في قلبه بإيمانه، وحبه لزوجته وابنه، غير أنه كان يحس بالظلم، فخلال سنوات سجنه الخمس لم يحظ من زوجته ولا ابنه بزيارة... كان وجه والدته الطاعنة في السن، الوحيد الذي ينتصب أمام شباك الزيارة في كل شهر حزيناً، محطماً، ترتسم عليه آثار العقود والظلم والحرمان، وكثيراً ما كانت روحه تتململ بهذه الأبيات وهو يتأمل وجهها من خلف شباك الزيارة:

بيننا هذا الشباك الظالمُ	نصفه شوق ونصف علقمُ
خلفه كفاك والوجه الذي	صار بدري بين ليلي يظلمُ
حين ينأى الغير تبقين معي	فلماذا أنثني أو أندمُ؟!

وكان يسألها عن وحدتها، فتجيبه بأن لها الله، ويشفق عليها، على شيبتها التائهة في زحام الدنيا التي لا ترحم، و يسألها عن أخبار ابنه، فلا يجد عندها ما يثلج صدره، أو يطفئ اللهب المتصاعد في جوانحه.



أمي.. أمي..

نبهها صوته، ويده على ركبتها، كان قد ترك سريره، وجاء ليجلس إلى جانبها، استدارت إليه، وبيدها دعكت يده على ركبتها، ثم أسندت رأسها إلى رأسه... أحسّته شقيق حزنها وتمزقها.

الوحيد الذي يحمل الجرح الذي تحمله.

كانا حرفين غريبين في كتاب بلغة أخرى، حرفين أخضرين في كتاب أحمر، وقد كان خاله الذي كثيراً ما يباهي بحجّاته الثلاث وبفقهه الإلحادي للإسلام، كثيراً ما ينتقد التزام الصبي غريب بالصلاة وقراءة القرآن، أما زوجته فكانت تتباهى بكفريات ابنها، وكلمات السوء التي يتلفظ بها مازحاً وجاداً، غاضباً وهادئاً.

وقد لقي غريب في بيت خاله طوال سنواته السبع ما لو لقيه غيره لانْصبغ بصبغةِ السوء ولونِ الخطيئة، لكنه كان يحمل في ذاكرته وشم الوفاء الذي رسمه أبوه بين جوانحه وفي سمعه.. كان يحسه يتقمصه... يتداخل به، فينطلق بلسانه، ويتصرف تصرفه.

كان الفارق بين أبيه وخاله كبيراً، فارقاً بين الطهر واللوثة، السماء والأرض، الشموخ والحقارة.

لذلك كانت كلمات خاله وزوجة خاله وأولادهما

الكثيرة المتكررة ممجوجة عنده لا تكاد تثبت أمام كلمات قليلة لا زالت عالقة كقناديل عتيقة بأغصان شجرة ذاكرته.

وكان يحس نفسه غصناً من أبيه، يسري فيه ذات النسغ الذي يسري فيه.

وكانت أمه ترى ذلك الشبه واضحاً، فتقول له حين يسألها عنه كيف كان:

– غريباً كبيراً كان.

كانت يده في يد أمه وهو يعيد السؤال.

– أين أبي يا أمي؟..

كانت تتأرجح على جبل رقيق مشدود بين الحقيقة واللاحقيقة.. المصارحة وعدمها... وهداها فكرها إلى أن الحقيقة يمكن أن تتجزأ، وهي ليست مضطرة لأن ترى بعينيها الاثنتين أو أن لا ترى أصلاً، فبإمكانها النظر والرؤية بعين واحدة، فلماذا لا تعطيه إذن بعضاً من كلٌ يطلب معرفته؟!!

وبعد صراع مع نفسها قالت له بعضاً من البعض، ولو أنه أعفاها لكان خيراً لها.

❁ ❁ ❁

مرت سنوات أخرى، واستوى عود الشاب، فقد صار بطول حلم أمه فيه، لكنه كان يحس أنه كلما كبر ازداد حمل عاتقه، ومنذ سنين وهو يحمل هذه القامة لا يجد لها أرضاً يركزها عليها... حملها منذ أن اقتلعت من أرضها أول مرة وخرجت إلى منافي الاغتراب وجليد الانتظار.. كان وسيماً كأبيه، كثير الصمت، يقول بعينيه العميقتين الكثير، أما كلامه فكانت تشوبه تأتأة يعسر معها نطق الكلمات في تسلسل وسلاسة، وقد عرف من بعد كما عرفت أمه من قبل أن ذلك نتيجة ما عاناه من الكبت والتقريع، وكثرة اللوم والتضييق في بيت خاله.

ولم يتخلف عنه في ذلك كبير ولا صغير، فقد كان كدفة باب يدفعها الداخل ويشدها الخارج، بل إن المجالس وطوال كل تلك السنوات لم تكن تَحْلُ للجميع إلا بالسخرية منه.

وكان يرى الطفولة، لكنه لم يعشها، يراها في أبناء خاله في البيت، وزملائه في الدراسة، وكانت يداه وكواهله مثقلة بالحمل الذي يعييها.

لذلك لم يكن بإمكانه حمل ما يحمله الصبيان في سنه عادة، من لعب وحلوى وحفنات فرح، كما لم يكن بإمكانه الانطلاق بخفة.

انقضى فصل الصبا الذي لم يرَ فيه الصبا، وجاء فصل

الشباب، دون زهرة شباب، ورغم ذلك فقد اقترب من أبيه أكثر، حين بدت أعلى من شفته العليا ملامح شارب ناعم.. وصارت أمه لذلك أكثر انتشاء به، فقد كانت تحب زوجها، وها هي اليوم تستعيض عن الأصل برؤية الفرع.

ولكم كانت تجلس الأوقات الطوال، تتأمله، وهو يقرأ القرآن، أو يراجع دروسه، أو يكتب خواطره، فتسبّح الله، إذ لم تكن ترى فيه سوى سحنة أبيه وملامحه.... !!!

سنوات مرت وهو يُجمّع عِقْدَ الحقيقة من أمه وممن حوله، حبّةً حبّة، واليوم لا يأوي إلى فراشه ويخبئ رأسه تحت اللحاف حتى يفتح زوادة معلوماته ويروح يستعرض محتوياتها، لذلك كانت الوحدة تستهويه، فهي فسحته ومدخله إلى عالمه، عالم ذكرياته.

الآن هو يعرف كل شيء، يعرف أن أباه تزوج أمه، وقد كانت (خضراء دِمَن) تعتقد غير ما تعتقده عائلتها، تزوجها أبوه بعد أن بلغه ما تعانيه من محيطها نتيجة لأفكارها وتديُّنها، كان كمن مدّ إليها يده لينقذها من الغرق، وقد عرفت له جميله وحفظته، وعلقته في رقبتها طوقاً، غير أن التيار كان أقوى منها بعد ذلك، فقد دخل زوجها السجن لأنه كان حكيماً مصلحاً في واقع تغتسل فيه المدن بدماء وآلام مصلحيها.

وحالت بينهما القضبان، ووجدت أمه نفسها في بيت لا

رجل فيه، وجذبتها الأيدي إلى منبتها، تاركة وراءها ما يمزق قلبها.. أمَّ زوجها، العجوز الضعيفة التي لا عائل لها ولا راعي.. وكانت طوال سنوات أعجز من أن تتعهدها بمساعدة أو حتى بزيارة، فلم يكن عندها من المال شيء، ولا كان مسموحاً لها بالسفر إليها في مدينتها البعيدة.

كل ذلك عرفه الشاب الغريب واطّلع على خبره، تماماً كما عرف أن أباه قد سافر بعد أن خرج من السجن إلى بلد أجنبي ومعه والدته العجوز التي قضت سنوات سجنه منتظرة إياه.

وكان على الفتى أن يحصل على خيط يوصله إلى أبيه وجدّتِه.. كان يحس بالشوق إليهما يمزقه تمزيقاً، وقد صار أوان لقائهما، فقد بلغت فتنة خاله له مبلغاً جعله يوعز إلى أحد معارفه من الضباط أن يستدعي الفتى ليحبسه يومين أو ثلاثة عله يترك أفكاره المتخلفة، بعد أن لم ينجح معه غير ذلك من وسائل الترهيب، وقد صار لابد حسب رأي الخال منْ كيّ، وآخر الدواء الكي.

وقد خدم الضابط صديقه ونزل عند رغبته متفضلاً وزيادة، فقد جعل اليومين أسبوعاً، قضاه غريب في التفكير في هذه الجدران الصماء التي لم تتكسر منذ يوسف عليه السلام ومَن قبله.

كان على أثر والده تديناً وعلى أثره ابتلاء، وقد أحس في زنزانته الانفرادية بالنشوة... بالوفاء لأبيه.

كان يتأمل الضابط الذي حقق معه بعينين فيهما عمق قضية، وتاريخ دين، وكان مطمئناً، فلم يكن له من جرم سوى أنه اختار طريق الله تعالى، ورآه قزماً لا جذور له ولا بهجة لون، ولم يأبه بتهديداته، بل إنه لم يجب عن الكثير من أسئلته.

ولم يتفاجأ خاله وهو يسمع ذلك من صديقه الضابط، بل علّق بقوله:

- عنيد كأبيه.

كانت أياماً اتسع فيها باب غريب إلى عالم ذكرياته وتأملاته.

كان في أذنه صوت الضابط:

- أنت بهذا تسترخص عمرك، وتلقي به إلى التهلكة والمشانق.

ويرد هو:

- عمري عزيز، لذلك لا أعطيه إلا لشيء غال، ولم أجد أغلى من الإسلام.

كان يجلس القرفصاء في زنزانته ويستعيد الشريط ويعيد النظر في كل آرائه وآراء غيره، بكل موضوعية... فهل يكون مخطئاً فعلاً، والحق مع غيره؟

ويقول لنفسه:

– لي عمر واحد، يجب أن أفنيه ككل المصلحين أو المفسدين في درب ما. وبأي لون من الألوان، فما ومن هذا الذي يستحق أن أعطيه جهدي وعمري وروحي؟!! البشر؟

وهل يستأهل أناس يبيعون روّادهم وخيّريهم لأعدائهم بثمن وبدون ثمن، أن يضحي الإنسان العاقل من أجلهم بعمره؟!

لقد ضمر الخير في البشر، وضمرت إنسانيتهم، حتى ألفوا اليد التي تجلدهم، وتسلبهم اللقمة، تستخرجها من مريئهم، وغدوا يدافعون عنها، ويتقربون إليها بذبح كل من يدعوهم إلى قطعها والخلاص منها.

فلماذا لا يترك القط لخانقه، وقد عُرف فعلاً أن القط يحب خانقه؟!!

هل يضحي من أجل فكرة يربح بها دنياه، ويخسر بها آخرته؟! أفيكون ذكياً من يخسر الخلود بسنوات معدودة لا تخلو مهما كان، من كدر، ولا يصفو ماؤها من مغرة؟!!

كان تفكيره قد هداه إلى أن أعظم ما يستاهل التضحية هو الإسلام، هذا الدين العظيم، وكان يرى سحابة الندم والخيبة على وجوه الكثير من الذين أفنوا أعمارهم لغير الحق.

كانت نهاية أولئك إلى مضغ لبان المرارة، واحتساء كؤوس الحسرات.

لذلك كان الفتى يحس بالطمأنينة لحسن اختياره،

وكان يحس أن توافقه مع أبيه في هذا الاختيار يزيد قناعته صلابة ويقيناً.

وقد قالت له عندما احتضنته راجعاً من حبسه:

إنك شامخ وعنيد مثل أبيك.. هل تعرف يا غريب؟

ورد عليها:

ماذا يا أمي؟

– في المساء سأريك قصيدة لأبيك.

-قصيدة؟، سألها وقد فاجأه ذلك.

– نعم قصيدة، هي أجمل ما قرأت لأبيك مما يصور نفسيته الشامخة الجريئة التي لا تقبل الهوان، ولا تشرب إلا صفواً.

– فالآن يا أمي أعطنيها.

– في المساء يا بني.

في الوقت الموعود، أخرجت أمه من كيس تخفيه بعناية بين أغراضها الخاصة، بعض الأوراق، كانت كمن يفتح كفناً عن جثة حبيب مات منذ سنين، ورأى حذرها وهي تخرج القصيدة من بين مجموعة من الأوراق، ودعاه فضوله أو حبه لمعرفة المزيد عن أبيه إلى أن طلب منها كل الأوراق، لكنها مانعت، وقالت: هي قصائد خاصة يا بني، وفهم، لكنه رغم ذلك ود لو عرف كل شيء، امتدت يده إلى الأوراق؛ فتحها،

كانت قصيدة من ثلاث صفحات، مكتوبة بلون أسود، وقرأ... كان يرى أباه بين السطور واقفاً على صخرة على الشاطئ، شامخاً كشجرة خرنوب، تخفق أثوابه في الريح، يضمّخ الرذاذ الآتي مع المد من الموج المتكسر على الصخور الرمادية وجهه، ولا يطرف له جفن... ينظر بعيداً.

كان يراه يخاطب خاله ومن هم على شاكلته، يعلن أنه ابن الشمس، وأنهم القابعون تحت الأثافي، لا تلفحهم شمس ولا تكتحل عيونهم بنور، فليس لهم غير الدخان، وهو له المجد، وقد استعصى على فهمهم، وأنى لهم أن يفهموه، وأعينهم أضيق من أن ترى قامته كاملة.

وكان يحب الشِّعر كأبيه، واستمعت إليه أمه، وهو يخرجه من رئته، فقد أحس أنه يعبّر عما في نفسه، ويساعده على إخراج ما لا يستطيع إخراجه لوحده:

منذ عشرين سنهْ

وأنا أكسر أبناء الدعاوى

تحت أقدامي تباعاً

تافهاً بعد ذليلْ

منذ عشرين سنهْ

وأنا أقهر في الرسم زوايا المستطيلْ

منذ عشرين سنهْ

وأنا أسمع تهويلا

أرى ضرْب صدورٍ عظْمُها هشٌّ

تقول القول رناناً.. وعند الجدِّ كانت..

تستقيلْ.

منذ عشرين سنهْ

خرقتْ كفّي دفوفاً وطبول

حفروا لي ألف أخدودٍ

رمَوْني في غياباتٍ

أقاموني على الجدران مصلوباً سنيناً

أخرجوني للمنافي

غير أني دائماً كنت أقولْ

وأقولْ... وأقولْ

كان قولي مثلما كان...

جهورياً... وصلباً.. جبلاً بين السيولْ.

إنّ خيل الهول لا تتركُ في النار الصهيل..

هكذا هي الخيولْ.

وضعاف القلب كانوا نصحوني:

استجب للريح يا هذا العنيدُ المرُّ

طأطئْ..

قلت: ذاك المستحيلْ،

ما سيبقى لإله الكون منّي إن أنا أحنيت صلبي

لابن صرصور ذليلْ؟!!

ربما لن تفهموني..

شرح ذاكم قد يطولْ

غيرَ أني

أكره الأكتاف أعلى من شموخ الرأس

لا رأس سوى الأكتافِ

منصوباً كرايات دخولْ

ربما لن تفهموني..

شرح ذاكمْ لن يطولْ..

ما سيبقى إنْ أَبعْ عهدي رخيصاً

وأرى أنفي ذليلاً تحت أقدام الخنازير

يسيلْ؟!!

ربما لم تعذروني..

وبنو الأطواد مظلومون في أعين

أبناء الحُفَرْ

قدرٌ ذاك قدرْ..

فلكم أن تطلبوا البدر بأن يسقط في الوَحْلِ

وأن يسريَ بين الروث مثل الخنفساءْ

ولكم أن تحمدوا العيش...

فما دام الحبيبُ الخبز يأتيكم..

وما دمتم إذا متّم وجدتم بعض أمتار

من الكتان والأرض..

وما دمتم بلا أدنى حياءْ.

فلكم أن تطلبوا مني بأن أنزل من

برج الجحاجيح إلى نون النساءْ

فاعذروني..

واسمعوني:

بعد قرن سوف يطوينا الفناءْ..

وستمضون بلا ظلّ إلى المحوِ

وأبقى هاهنا في الكون مرفوعاً

كياءات النداءْ...

شامخاً أضبط وقْع

الخطو في درب القضايا..

ولكم أنتم مئات اثُفوه من كلّ

شريف مستخف بالبلاءْ.

حين أنهى قراءة القصيدة استأذن أمه في أن يستبقيها للغد حتى يصورها، وأذنت له في ذلك.

فتوسدها ونام، والعزم يملأ جوانحه ويضج هادراً يضغط على أضلاعه، التي أضحت كجدران سدّ تبيت وتصبح تقاوم اندفاع الماء الكثير.

عيناه على الكرّاسة، جالساً كان في ساحة الجامعة على كرسي خشبي ألِفَ الجلوس عليه،قريباً من شجرة صنوبر عتيقة.

لم يستطع التركيز، غير أن بهجة الربيع كانت تفتح للمكان الساحر نافذة إلى صدره، فيحس بالنشوة كعصفور تستخفه أفراح الفصل الزاهي فيحلق عالياً يمارس متعة الابتعاد عن حمأة الأرض... أصل طينته، مقترباً من السماء.. أصل روحه ويظل معلقاً ما أسعفه جناحاه في ذلك.

وتنفّس بعمق، وغمره الظل القادم.. كانت أمامه تسأله:

– أخ غريب..

انتبه إليها راجعاً من عالم التحليق:

– نعم.

عبير، هكذا كان اسمها، معجبة بأخلاقه، تحدث بها زميلاتها في الجامعة وأمها وأخواتها في البيت، وتوليه اهتماماً زائداً، لمسه منها المحيطون بها.. وكانت متدينة لا تكاد ترفع بصرها وهي تتحدث، وأحس في أكثر من مرة أنها تصطنع مبررات لتكلّمه..

ظلت واقفة، تضم حافظة أوراقها بيديها إلى صدرها، وسألها دون أن يرفع بصره نحوها:

- هل هناك شيء يا أخت عبير؟

ارتبكت، وهي تُخرج من حافظة الأوراق جريدة، تمد بها يدها إليه، وهي تحاول أن تُركّب جملة دون تلعثم:

- تستضيف جامعتنا الأسبوع القادم، الشاعر الإسلامي مهاجر أبو العينين، لفت الخبر انتباهي، أولاً لأنك تحب الشِّعر، ولا شك أنك ستحضر، ثم لأن اسمه العائلي كاسمك تماماً: أبو العينين...

بدا عليه الاهتمام، وراح يفتح الجريدة يبحث عن الخبر، وقالت تساعده:

- أسفل الصفحة (١٢).

وفتحها، كان كل ما في الخبر يدل على أن المقصود أباه، فهو مقيم في سويسرا، ولقبه أبو العينين، وهو شاعر إسلامي ملتزم، وود لو أنه قرأ، سعيداً، بدل مهاجر.

أعاد إليها الجريدة شاكراً، وسألته إن كان سيحضر الأمسية الشعرية، فرد بالإيجاب، وانصرفت إلى مجموعة من صويحباتها كن ينتظرنها متهامسات باسمات، وابتسمت لهن من بعيد، وفي عينيها شيء من مكر النساء.

لقد كان متميزاً فعلاً، وعبير كانت تقول عنه:

- أشبهه بمصعب بن عمير.

وحين تُسأل عن سبب هذا الربط تقول:

- هل في كُليّتنا كلها من تتهامس البنات بسيرته واسمه مثلما ما تفعلن بسيرة واسم غريب، إنه غريب فعلاً، قالت ذلك وهي تبتسم وتغمض عينيها، كأنما تطير في السماء كفراشة، وتضاحكت الأخريات.

ويشهد كل من عرف عبيراً أنها كانت فتاة مثالية، لا يحظى منها حتى أساتذتها بكلمة، غير أن غريباً كان نقطة ضعفها، اجتمع فيه ما ترسمه كل فتاة متدينة لفارس أحلامها، فهو رغم حداثة سنه رجل، مزدان بسمت العظماء، لا يزيد في ضحكاته المعدودة على التبسم. لا يعرف اللهو، ولا التهريج، عزيز النفس، كان مترفعاً عن السفاسف والترّهات المعهودة عند طلاب الجامعة في سنه.

وكان غريب إزاءها غامضاً لدرجة أنها ساءلت نفسها يوماً، إن كان رآها وإن كان قد عرف اسمها، فضلاً عن إحساسه بما تكنُّه له من العواطف.

وقد قالت لإحدى صديقاتها:

- هل تعرفين معنى عقب آخيل في الأسطورة؟

وأضافت دون أن تنتظر جواباً:

- آخيل البطل لم يكن يتأثر بالسهام، لأن أمه غمسته

في نهر الحياة صغيراً، وبعد تفكير اهتدى أعداؤه أن أمه لما فعلت ذلك كانت تمسكه من رجله وتدليه في الماء، فعقبه لم يبتل، وهو نقطة ضعفه. وحين أصابوه بسهم مسموم في عقبه مات وانتهت أسطورته، وغريب نقطة ضعفي وعقب آخيل عندي، لكن أسطورتي ستبدأ حينما يكون من نصيبي وقدري، هل ترين هذه الأساور الذهبية يا أميمة، سأقدمها للمجاهدين في سبيل الله، في أي أرض إذا تزوجني غريب يوماً.

وقالت لها صديقتها أميمة:

– إذن دعيني من الآن أبدأ ترتيباتي لتكوين جيش مجاهدين لأحظى بهذا العطاء البراق.

وضحكتا، وهما تدلفان عبر باب المدرج.



هزها الإعلان الذي سمعته لتوها في التلفزيون، فمن كان يصدق أن العنيد أبو العنيد سيكون بعد أسبوع في ذات المدينة التي تسكنها هي وابنها، يفتح جراحه أمام المستمعين إلى قصائده؟!!

وماذا عليها تجاه ابنها؟

أتخبره الحقيقة، أم تخفيها عنه؟

لم تكن تستقر على شيء، غير أنها كانت مرتعشة الفؤاد من الفرح والنشوة..

فهذا النورس الذي سيحط قريباً منها قريباً هو ذلك الشاب الذي أحبته في الجامعة، وكانت تتمنى لو يتاح لها أن تجمع التراب الذي يمشي عليه، لتضعه مع أشيائها ومقتنياتها الجميلة القريبة من قلبها..

صمته كان يقتلها، وتتمنى أن تدخل في الجمجمة القلعة، الغامضة، تغوص في سراديبها وأقبيتها لتعرف ما يفكر فيه، ولتبحث عن نفسها في تلك القلعة.

وكانت تسأل نفسها: هل أنا موجودة في قاموسه، ولو في الهامش؟!!

كان كبيراً، تتمنى إلهات الإغريق واليونان الأسطورية، لو أدركنه، أن يكنَّ حروفاً على هامش متن حياته المثيرة.

انتبهت من تفكيرها، مشت إلى حيث تضع أوراقها

الخاصة، أخرجتها، وأجالت عينيها بين سطور أولى رسائله إليها، كانت أول جواب منه على عشرين رسالة أرسلتها إليها ولفّها غموضه، حتى لم تكن تعلم أوَصَلَته أم لا..

كان بثقل وثبات جبل.. وكانت هي جميلة.. قد قرّرت أن تدخل حِمى ضوئه كفراشة أو تظل تدور حول ذلك الضوء حتى تحترق وصارحته بكل ذلك. وحين قدر أن يجيبها لم تخط يده سوى سطرين بعد البسملة هما هذا الذي تقرأه الآن في الورقة التي ترتجف بارتجاف يديها:

أسير على حبل اللهب، يحترق فأهوي، يبقى فأحترق، وفي الأمرين لا أريد أن آخذ في كفي كفاً أخاف عليها من هبّات النسيم.

كانت خياراته شائكة، وكان لا يريد لأرجل حافية أخرى أن تشاركه رحلة الوخز وقطرات الدم.

وأذهلها رده، وتأملت قوله: أخاف عليها من هبات النسيم، وكتبت إليه:

أموت لتحيا أنت، أحتضن الحبل فأكون الجسر لتعبر.

وتزوجها لكن أهلها فصلوا الكفين في أولى مراحل العبور.. ومر لوحده من ضفة إلى ضفة، مر على جسده... لكنه لم يخرج من الطاحونة،، وها هو برد المنافي يلسعه، لكن الشِّعر لم يتوقف عن كتابته، تماماً كما لم يتوقف غيره من مؤثري دروب السلامة عن كتابة الشّعر.

كان في قصائده جرحاً، ألماً، دمعةً، انتظاراً.. صحراء حزن لا ترحم.

ومع الشمس سيأتي غداً ليفتح جراحه قريباً منها، فيفتح بذلك جراحها هي.

وبكت في يدها، ثم ضحكت، قهقهت، مشت إلى مرآة خزانتها، وضعت سبابتها عليها، كتبت اسمه (سعيد)، وهوت على المرآة تضربها بقبضتها وهي تعود إلى البكاء، وفوجئت بباب الغرفة ينفتح، يدخل منه ابنها، يسألها:

– ما الأمر يا أمي؟

فتجيبه وهي تتظاهر بالابتسام، ماسحة دموعها.

– لا شيء يا حبيبي، لا شيء.



الليل حامل نصائح لا يمل، وفيه تتوالد الأسئلة المرة، ويعلو حاجز الأرق بين العين ورحلة النوم، وحين تغفي المادة ويهدأ نبضها المتعب تبقى الآذان تستمع إلى نداءات الروح القادمة من الأعماق.

وللشاعر إرهاصات القصيدة واللقاء المثير، وهو كان في غرفته يحاول النوم مبكراً بعد أن اطمأن على والدته العجوز في غرفتها فأمامهما في الغد سفر متعب.

لقد أصرّت أن تأتي معه إلى مدينة يسكنها طائر أبيض صغير، لم يكفّ يوماً عن التخبط وضرْبِ الأجنحة في صدرها، أحبته وتحتفظ له في قلبها الدافئ بقصص طفولته حين بدأ خطواته الأولى، تماماً كما يبدأ طائر صغير محاولات طيرانه الأولى، كان يقع ويقوم ليواصل نقل قدميه، ومع كل خطوة كان جسده الصغير يترنح ليسقط ويقاوم ليبقى واقفاً، كان ذلك درسه الأول في مقاومة السقوط، وتذْكره وهو يحبو، ويناديها، بلغته الطرية التي لم يستو نطقها بعد.

دَدّتي (جدّتي)

فتفتح له ذراعيها، فيشهق بنشوة، وهو يسرع إليها، تمد يديها تحمله من الأرض:

– يا عمري، يا روحي، يا أحلى زهرة.

وتغمض عينيها وتشمه ريحانة شذية، وطوال سنوات الغياب لم تكف عن شم ثيابه التي أخذتها معها في حقيبتها، لم يكن يغيب عنها لحظة، تهدهده للنوم. وتقبّله بين عينيه، وتضمه، تضمه، تضمه، ولم يكبر.. بقي بين جوانحها كما كان منذ حال بينهما الظلم، تناغيه، فيشرق ثغره بابتسامته الرّائعة.. وتتأمل عينيه فيرجع بها الزمن عقوداً، كونها كانت ترى في عينيه الواسعتين العميقتين عيني أبيه حين كان في سنه، طفلاً.

أحبت فيه الحفيد والابن، الحاضر والماضي، الجذع والغصن.

وأصرت على أن ترحل مع ابنها إلى مدينة تحضن ظل هذا الطفل الثابت في أضلاعها، أم لعل الذي في أضلاعها هو الظل، وهي مسافرة للأصل.

كانت متلهفة تعد الساعات إذ سيتاح لها بعد إنهاء ابنها لمشاغله وما دعي من أجله أن تزور بيتها الموجود في مدينة أخرى، والتي ما زال منذ أن غاب الجميع، وهدأت حركتهم فيه، يتلفع بالصمت وينتظر لمسة المفتاح لبابه.

ومثلهما كان ابنها الشاعر، فقد ألقى إلى وسادة الأفكار رأسه، وراح يستحضر أطيافاً حبيبة.

دقات الثواني على ساعة الجدار تملأ الغرفة، وتنظّم وقع مناديف الصمت المتساقطة من سقفها.

إحدى عشرة سنة توارت خلف هضبة الزمن.

وغداً، وليس بعد غد، سيكون إن شاء الله. في مدينة تقسم بينهما هواءها وماءها، تماماً مثلما تفعل أم بتوأميها، ملعقة لهذا، وأخرى للآخر.

كان يريد إقناع نفسه بوجوب التبكير في النوم، فالرحلة ستكون شاقة ولا شك، غير أنه كان يطلب المستحيل، وسلّم ساعة وثانية وثالثة حتى أجهده التفكير، واحتوشه وحش الموتة الصغرى، وفي هدأة الليل كانت هناك أربع أنفس تنتظر الغد بلهفة.



حينما حط الطائر الحديدي الضخم على مدرج المطار، أحس قلبان أنهما وقعا في مكانيهما، وكانا طوال سنوات معلقيْن بالأقدار.

فُتح الباب ونزل آخذاً بيدها، في منتصف السلّم، انتحى ناحية ليدع غيره يمر، وطوق كتفيها بذراعه، ثم أغمض عينيه، وملأ صدره من رائحة الوطن الذي عاش طوال سنوات يحمله في قلبه، ولم يكن يعيش في الوطن، لكن الوطن كان يعيش فيه، يأكل منه، ويكبر، ومن رئته كان يتنفس.

كان ينظر للأعلى نظرة الشموخ الوحيدة التي لا يملك غيرها، ونزل، ولسانه لا يكف عن حمد الله تعالى.

في طريقهما إلى الفندق لم يكفا عن معانقة الأشياء بأعينهما.

روح الوطن لم تتغير، رغم لمسات جديدة في العمران والمقتنيات والمظاهر.

أخرج يده من زجاج السيارة، أمسك بقبضة نسمات ربيعية، يعرفها جيداً، ضغط عليها بقوة، وسأله المرافق الجالس إلى جانب السائق:

– كيف تجدُ الوطن يا أستاذ ؟!!

أراد أن يقول له: وكيف يجدني الوطن؟ لكنه صمت برهة وأجاب:

– وطناً أجده.

كان اللوم في عينيه حريرياً لا يجرح، لكنه عتاب حبيب ظُلم، ومن عينيه تدفقت الكلمات قصيداً حاراً..

هذي القصائدُ –عذراً– أنت يا وطني
فاقبلْ– فديتك– هذا البوح مِن شجني
قد كنت أكتم والبركان يأكلني
صدّق.. وأحمل مثل البحر في سفني
طال الزمان، وللكتمان.. شاطئه
ها قد بلغْتُ حدود الصبر في الفتنِ
ها قد فريتَ على السكين أوردتي
رغم القرابة.. والأرحام بالمحنِ
كسّرت عمريَ بالأوجاع أذكرُها
صادرت حسّيَ في الأنفاس والبدن
شرّدت ظلّيَ في البيداء كم سنةٍ!!
حطمت حلميَ بالأسلاك والحزَنِ
ماذا جنيتُ؟ أبالإسلام تأخذني؟!!
ماذا أقمتُ؟ أغير الحق والسنن؟!!
ماذا فعلتُ؟ وللمظلوم حجته
يوم القيامة.. ماذا سيد المدن؟!!
باق أسائل كل الأرض عذبني
ظلم القرابة... آهٍ منك يا زمني

❁ ❁ ❁

رأته يعبُرُ الرواق الطويل، فغيرت من اتجاهها، وسارت خلفه، تبعته إلى نهايته حيث الساحة، ومنه إلى الكرسي الخشبي الذي ألف الجلوس فوقه، هناك حيث شجرة الصنوبر العتيقة، وجلس.. وحوله انتصبت هالة الهيبة التي لا يكاد يخترقها إليه إلا متلفع بحسن مخاطبة:

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ورد التحية بأحسن منها.

– أخ غريب، هذه بعض المجموعات الشعرية، اقتنيتها من مكتبة قريبة من بيتنا، أرجو أن تجد فيها ما يعجبك:

أحس بالإحراج، وود لو أنها لم تفعل ذلك.. ورأى أن يقول:

– وكم ثمن هذه؟

فابتسمت، وهزت رأسها يميناً وشمالاً في تعجب وهي تقول:

– أيمكن لي أن أكون صريحة معك، وأن أبدي فيك رأياً؟

هز رأسه بالإيجاب، زاماً شفتيه، كأنه يعرف ما ستقول، فقالت:

– اسمح لي أن أقول لك: إني ما رأيت في حياتي أشد عناداً ولا أعز نفساً، ولا أشف إحساساً منك.

وابتسم دون أن يجيب، ووجدت الفرصة سانحة فكشفت عن ساقي الجرأة، وتقدمت نحو اللجة أكثر، قائلة:

– أتعرف؟ إنك قدوتي العملية، أنت إنسان من غير هذا العصر.

لم يقل شيئاً، كان ذلك يستفزها، وكادت تقول له: أنت حجر كريم... والحجارة الكريمة تبقى رغم كل شيء حجارة، لا تحس، ولا تجيب، ولا تشعر بما يحمله لها الآخرون من التقدير والحُب والإعجاب.

زاد توغّلا في صمته، وازدادت توغُّلاً في اللجة... والمرأة كالظل تهرب ممن يتبعها، وتتبع الهارب منها، وكادت تعترف، ولو كان الجالس أمامها حينئذ على غير ذلك الصمت، لكانت أدركت أنها بلغت وزيادة، أما والحال على غير ذلك، فقد كانت في حاجة إلى أن تقول ما عندها بصراحة.

ولعل خفتها وعواطفها أنستها آنذاك أن للشاب من الذكاء قدراً مشهوداً به. وإذا كان قلبه متحجراً، فإن عقله ليس كذلك، ولا شك أنه فهم مراميها ومرادها، لكنها المرأة إذا لم يؤذن لها بالدخول ظلت تطرق ولو غير باب..

وطرقُ الفراغ مكانَ بابٍ مفتوح اشتهرت به بنات حواء، كونهن لا يفهمن في لغة العواطف سوى الكلمات البارزة المشكولة، غير أنها كانت في نفسها تحبّ أن لا تسمع منه كلمة صريحة، لأن الكلمة الجميلة إذا قيلت ماتت، لذلك تكون المتعة في الدوران حولها دوران فراشة حول النار.

كان بالنسبة لها قلعة غريبة، تحيطها الأسوار وتلفها الغرابة... كتاباً مُغلقاً يثير الفضول ويشد الأفكار والقلوب... وكانت تدرك أن القلعة متى اكتُشفت انتهت.. تماماً كما ينتهي كتاب عند إتمام قراءته.

قالت:

– أخ غريب هناك أمرٌ يجب أن أستشيرك فيه، لقد تقدم لخطبتي أحدُ الشباب، ولعل هذه السنة تكون الأخيرة لي في هذه الجامعة.

وأحست باهتزازه، وهو يسألها:

– شاب؟ أي شاب؟!!

– أحد الذين سيتخرّجون هذه السنة.

– وما رأيك أنتِ؟ وكيف عرفكِ؟

وأحست أنه يحاول أن يرد إلى قمقم أعماقه عملاقاً ثائراً من الغيرة بدأ يتمرد على سجنه، ويخرج..

– أنا أستشيرك...

– لم تجيبي على سؤالي؟

قال ذلك بتوتر ملحوظ.. وابتسمت في داخلها ابتسامة واسعة، وأحست نفسها قد ملكت الدنيا، فها هو تمثال أبي الهول ينشق، ويخرج من ثنايا صمته، هذا الفارس الغيور..

- أخ غريب.. أنا معجبة بك أنت، ولكنْ...

- لكن ماذا؟

- ألم يجئ في الشرع: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه...

- صدقْتِ..

قال ذلك بانكسار...

وأحست بصدق تدينه، وتسليمه للشرع حتى فيما يتعارض مع هوى نفسه، وزاد:

- وفقك الله يا عبير...

أحسّ أن الأشياء الجميلة والأحلام الوردية تتحول بين أصابعه إلى رماد.. تماماً مثلما يحدث للكلمات حينما ينْظمها قصائد حزينة...

وابتسمت وهي تقول بمكر:

- لكن المتقدم ممن لا يُرتضى له دين أو خلق...

وابتسم بدوره.. وهي تقول له:

- أخ غريب، أنا معجبة بك و.. سأنتظرك..



– لم يبق ساعة على بدءِ الأمسية يا غريب، هيا أسرع..

جاءه صوتها مستعجلاً، وكان ينظر في المرآة يمشط شعره، وخيِّل إليه أنه رأى اسم أبيه سعيد على المرآة... فقد أغفلت أمه حين كتبته بإصبعها قبل ذلك اليوم أن تمحوه... لكنه لم يقطع الشك بسيف اليقين، وأقنع نفسه أخيراً أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تهيؤات.. ودخلت عليه أمه لابسة حجابها...

– إلى أين يا أمي؟

– معك...

قالت ذلك مبتسمة، وقد فاجأه الأمر... فأضافت:

– هل نسيت أني مُحبّة للشعر...

– لم أنسَ ولكن.. !!

– ولكن ماذا؟!!

– هذه أول مرة أراك تحضرين أمسية.

– وقد لا تكون الأخيرة.

أحس بنبضات قلبه تزداد، وغمره شعور جارف بأن هذه الأمسية ستكون محطة مثيرة في حياته...

كان بين المد والجزر، تتقاذفه الأفكار والاحتمالات...

لقد حضر العديد من الأمسيات الشعرية.. فلماذا يجد اليوم في نفسه كل هذا التوتر، والنبض الزائد؟!!

أحس بيدها فوق كتفه، واستدار:

– غريب...

وصمتت، كانت على وشك أن تقول شيئاً... وكان ينتظر ذلك الشيء بلهفة... تأملت وجهه المنتصب كمنارة قبالة وجهها المشرق، وسألته:

– هل أنت سعيد؟

– لا، أنا غريب يا أمي...

فضحكت، ووجد في نفسه حاجة لأن يسألها:

– أمي، أنت لست مطلقة من أبي أليس كذلك؟

– لستُ مطلقة يا حبيبي... فلماذا تسأل هذا السؤال؟!!

– لا شيء، سوى أني أغار عليك نيابة عن أبي...

وضحكت مرة أخرى، ورأى أنها اليوم على غير عادتها... مشرقة الوجه والثغر... سعيدة، تزرع الضحكات في أرجاء الغرفة...

لقد أحست فجأة أن طرفي الماضي والمستقبل قد التأما... واتصلت أيام اللقاء بأيام اللقاء، وفي لحظة واحدة كانت كأنها لم تر بأساً يوماً...

كانت سعيدة لأجل ابنها الذي سيخرج من الطاحونة، بعد أن عانى قلبه البريء لسنوات حين عُلِّق في مرمى السهام... هل تفاجئه بأن هذا الذي سيشنّف سمعه بقصائده التي لابد أن تكون عنيدة وحزينة الليلة هو أبوه؟ أمْ أن الأَوْلى أن تترك للقلوب وللأرواح دورها في اشتمام رائحة الأحبة والتعرف عليهم؟!! وقررت أن تبتلع سرها رغم أن ذلك ليس بالأمر السهل... ولم يكن الأمر بسيطا بالنسبة لها... فاللقاء المرتقب محطة شبيهة بالولادة والموت، تنتهي فيها حياة وتبدأ فيها أخرى... لذلك كانت سعادتها بحجم المحيط... وعادت بأفكارها إلى الماضي حين كانت تراقبه في مخاض القصيدة وهو يكتب... كان يكتب كثيراً لدرجة أنها قالت له يوماً:

– لا أراك إلا والقلم في يدك...

فرد عليها:

– إنه إصبعي السادس... يهون علي استئصال إبهامي، ولا أستطيع التخلي عنه... يدي بدونه بلا أصابع.. بل أنا بدونه بلا يد...

وبعد كل قصيدة يكتبها، كانت تسترق إليه السمع يردد مقاطع منها، فتحفظها... وحين كان يحدث بينهما شيء من التباعد والهجر الذي باعثه دلالها ومرامه دفعها لتغيير بعض ما لا يريده منها.. كانت تقف غير بعيدة منه، تطبخ أو تخيط، رافعة أنفها إلى الأعلى في دلال وتظاهر بالهجر، تردد بعض تلك المقاطع. فلا يملك إلا أن يهز رأسه ويبتسم...

كانت حياتهما رائعة، ترفرف عليها أجنحة العطف والرحمة، وتظلها شجرة الطهر.. وكانت سعيدة معه، وقد عاشت سنوات الفراق بعد ذلك على بقايا ذكرياتها معه... وكان ذلك الذي هوّن عليها ما لاقته وابنها من القهر والشدة في بيت أخيها الذي تراه اليوم ما زال مصراً على طريقته في الحياة، رغم أن ذلك كان سبباً في سلوك ابنه الأكبر الذي هو في سن ابنها غريب طريق السوء الذي أوصله إلى السجن حيث يقضي عقوبة بثلاث سنوات لبيعه وتعاطيه المخدرات... كان غريب قد أنهى لبسه، وتوجه إليها حيث تجلس وتتأمله سابحة في أفكارها...

– أنا جاهز يا أمي...

وتثاءبت... فضحك، وحين استفسرت منه عن سبب ضحكه، أخبرها أن جدة أحد زملائه في الجامعة، تثاءبت يوماً، فخرج عظم فكّها من مكانه ولم تستطع إغلاق فمها... وضحكت للنكتة وعادت إلى التثاؤب... فسألها..

– ما الأمر يا أمي؟

أجابت:

– لم أنم البارحة جيداً...

قال:

– ولا أنا...

وأخذ بيدها خارجين من البيت، وهو يهمس لها:

كَفّي وكفُّكِ والحنانْ

والدرب يا أمي يَدانْ

ضمّي يديك على يدي

ودعي خُطانا للزمانْ

* * *

على باب الجامعة وجداها تنتظرهما... عبير... سلّمت عليهما.. واحمر وجهه، وطرفت عيناه بسرعة.

– أمي، هذه عبير، زميلتنا في الكلية.

– أهلاً يا عبير.

– وهذه أمي يا عبير.

– مرحباً يا سيدتي، لا يبدو عليك أنك أم... فاصدقيني القول، وقولي أنك أخته الصغرى...

و لأنّ المرأة عن المرأة أفهم، فقد وجدت أمّ غريب نفسها تقول:

– بل قريباً إن شاء الله سأكون جدة يا عبير..

وضحك الثلاثة، وأحست الفتاة بحميمية كبيرة نحو المرأة وقالت:

– تعرفين يا سيدتي؟ نِعْمَ ما ربّيتِ والله... ديناً، وخلقاً، وعلماً، وشعراً أيضاً.

كان المساء استثنائياً، مساء ربيعي، تدافعت فيه أعداد كبيرة من العصافير إلى الأشجار العتيقة في ساحة الجامعة محدثة فوضى زقزقات كثيرة متداخلة.. تماماً كما قصد المدرج الكبير الذي ستقام فيه الأمسية زرافات من الطلاب، والمثقفين.. والأدباء والمهتمين..

وكانت عبير قد انتحت بضيفيها ناحية، وراحت تسرق من الوقت لحظات سعادة... أحست أن هذه هي أسرتها في المستقبل... وقد استراحت أم غريب إلى أدب وحديث عبير، زيادة على ذلك فقد رأتها ذات قسطٍ كبير من الجمال... كما أن الفتاة أنست بالمرأة، ورأت على وجهها بسمات الصلاح والتقوى والخلق الرفيع...

فهل كانت المناسبة مناسبة اكتمال نصاب أسرة للمستقبل، تجمّع أفرادها في تلك الأمسية ليصنعوا في الغد دفء بيت عزيز بمبادئه وطهره؟!!

وخطف غريب من الساعة في يمناه رقمين، ثم قال:

– إنه الوقت، دعونا ندخل لئلا يفوتنا شيء..

وتحركت الأقدام الستة بين الأقدام الكثيرة الأخرى نحو المدرّج، وفي أذن أم غريب، قصيدة قديمة، ساقتها إليها الهواتف مقاطع في تلك اللحظات:

صنعتْني المرأة البُنيّة العينين من بعض صخورٍ

جمعتْها في الشتاءْ

نقشتْ في حاجبيَّ الحزنَ والعزمَ

وقامت أفرغت رأسي وروحي

من فقاعات الهواءْ

وسألت الله شيئينِ:

– شموخي

– وشموخي

وتذكَّرَته حين كتب تلك المقاطع مفتخراً بأمه العجوز التي ربته على العزم والالتزام... وعلى وقع الكلمات كانت تدخل المدرّج عن يمينها ابنها وعن يسارها فتاة عرفتها منذ ساعة وأحبتها، تُدعى عبير.



الانتظار تأرجحٌ بين اللحظة الحاضرة ولحظة أخرى مرتقبة.. بين الجسد واستشرافات الروح... بين ما هو كائن وما سيكون، وحينما تصبح عجلة الإنسان تسبق دقات الساعة، يصبح الوقت محرقة للأعصاب، ويتمنى المرء لو يتاح له جر عقارب الساعة إلى المستقبل بالسرعة التي يتسنى له بها قتل وحش الانتظار المرير...

وحين يتحول مكان ما.. أو لحظة ما إلى محطة تتغير فيها حياة الإنسان، فإن ذلك الموعد يكون حاسماً وخطيراً...

كانت نبضات القلوب تتسارع... والأعين تترقب...

كانت تفرك أصابعها، متوترة، تخطف النظر إلى ساعتها، ثم إلى المنصة الموشاة بالزهر، حيث جلس ثلاثة من الأدباء المرموقين في انتظار وصول الشاعر... وخلفهم انتصبت لافتة بيضاء مكتوب عليها باللون الأخضر، جملة ترحيبية...

وانتظر الحضور شاعراً يشنف الأسماع بالكلمة الخضراء المتوضئة في زمن أدب المراحيض..

أما هي فكانت تنتظر إطلالة إنسان حبيب على قلبها.. تعرفه كما لا يعرفه في القاعة دونها أحدٌ... لذلك لم يكن الانتظار كالانتظار، ولا اللهفة كاللهفة، رغم أن المنتظَر واحد.. وكانت بين اللحظة وابنة أمها تخطف النظر إلى ابنها غريب تقرأ ما يرتسم على وجهه الشفاف... وكان هادئاً

تتحرك شفتاه كعادته بالذكر أو آيات من القرآن الكريم... وانتبه إلى أنها تتأمله، فابتسم لها، ثم عاد ببصره إلى المنصة، دون أن يكف عن تحريك شفتيه.

سنوات طويلة مرت منذ أن تشعبت الدروب بالخطى.. لتصير الذكريات زاد الجميع.. سنوات، والآن يفتح لها المكان نافذة أخرى للتذكّر... وكيف تتسى الجامعة حيث التقيا.. إنها تتذكر التفاصيل... ففي هذا المدرّج كانا يجلسان، كانت هي في مدينتها، أما هو فقد جاء من مدينة أخرى لا يوجد في جامعتها تخصصه.. كان هنا غريباً تماماً كما هو ابنه الآن... وتمنت لو أن الوقت كان نهاراً، إذن لتسنى لها أن تزور شجرة الصنوبر العتيقة التي كتبت على جذعها حرفي اسميهما.. لم تكن حينها تستطيع مدافعة تلك الرغبة الداخلية الجامحة في فعل ذلك.. وكانت قبل ذلك تستهجن مثل ذلك مِنْ حفرِ الذكريات والأسماء والتواريخ على الأحجار والأشجار والرمال، والطاولات، كانت تسمي ذلك فن الصعاليك، لكنها فعلتها مرة.. وكتبت اسميهما.. لم تكن آنذاك قد تحجبت.. وحين أعلمته بعد ذلك بما فعلت وأرته الحرفين ابتسم وهو يقول:

– هذا إمضاء عن الغير، وهو نوع من التزوير، ولم تكوني حينها تعرفين عاطفتي نحوك، فمن سمح لك بكتابة اسمي؟

ولم تكن تعرف أن شجرتهما تلك هي التي يجلس إليها

ابنهما اليوم في الساحة كلما اختار الجلوس هناك...

انتبهت إلى دخول أشخاص من خلف ستار المنصة... وفي لحظة وُلد في جمجمتها مليون سؤال:

أتراه تغيّر؟ أترى السنوات قد صبغت مفرقيه بالشيب؟! كانت تقلب بصرها في الوجوه بحثاً عنه... ولم يكن بين الوجوه... ودخل... كانت لحظة لها معناها... تأملته شامخاً كما كان دائماً يحمل في حاجبيه جيشاً لا ينهزم، وتاريخاً من الفتوحات.. سلّم، فردت مع من رد، ونظرت إلى غريب فإذا على محياه سكون وسمتُ الرائعين...

كانت تريد أن تصرخ لتقول للجميع:

هذا النورس نورسي، وخيط الأغاريد التي ستسمعون نُسج طرفه أمام عيوني.. بل في عيوني، منذ أكثر من عقد..

وانتبهت إلى أحدهم على المنصة، يفتتح ترحيبه وتعريفه بالشاعر... دام ذلك دقائق... وهي تجانب الحقيقة إن قالت إنها نظرت فيها إلى غير وجهه هو.

كان بصره على الطاولة أمامه... وبدا لها أن فرشاة السنوات قد أضافت على اللوحة القديمة بعض الخطوط واللمسات، فهو اليوم في عينها أكثر نضجاً.. أنيقاً كما كان، تكاد تجزم أن رائحة عطره المميزة قد بلغت أنفها، وتغلغلت في روحها، تغلغل الضوء في حبيبات الفضاء بعد ليل

بهيم حالك.. كانت امرأة أولاً.. وكانت غيورة ثانياً، وثالثاً وألفاً، لذلك ذهبت تبحث في يديه عن شيء ما.. ولأن يديه كانتا على الطاولة أمامه، فقد تعذر عليها ذلك، مما اضطرها إلى القيام.. وسألها ابنها:

- هل هناك شيء يا أمي؟

- لا يا بني، لا شيء.

قالت ذلك وعادت للجلوس على مقعدها الإسفنجي، المغلف بالمخمل الأخضر.. وكان المقدِّم قد أنهى ترحيبه وتقديمه، وأعطى المجال للشاعر الضيف...

كان لابد للهمسات والكلمات المتبادلة بين الحضور أن تصمت...

وبسْمَلَ...

كانت كلماته كأنما تُقدّ من جبل... أو تقتلع من قلبه...

وانتشت بالصوت:

سأبقى...

وتتكسر المدن العاريات على قدمي

وتحت الحذاءْ..

كانت تدرك أنه قد كسب التحدي.. وأنه عاد عودة الشمس بعد غياب... مشرقاً، بهيجاً... وحقَّ له لذلك وبذلك أن

يعلن انتصاره وبقاءه.. فهل كانت هي في نظره مدينة عارية، يعلن اليوم انكسارها؟ هل يعتبر استجابتها لأهلها تخلياً عنه؟

لا شك أن الجرح في صدره عميق، وأن إحساسه بالظلم رهيب، وإلا لكان أجابها على الرسائل التي أرسلتها له بعد خروجه من السجن وسفره مباشرةً بعد ذلك.. !!؟

كانت كلماته تعيد رسمه كما هو، كما عرفتْه دائماً مُعتداً بنفسه، اعتداده بالحق الذي يحمله..

ويضيف:

وفيَّ تموت الإلهاتُ

كلٌ تريد القصيدة فيها..

أنا سيّد الشعراءْ

وفينوس تدرك أن الدواوين منها إليها...

فتضحك في حفنةٍ من يديها

وتغلق نافذةً نحوهن..

وتخبر مرآتها أنها بنتُ ماءْ

ومن زبد البحر جاءت ولكنْ

أنا المسلم المستبدُ بقلبي

لماذا أراها كأحلى النساء

ومن زبد البحر جاءتْ

وتسأل عني:

فهذا العنيدُ المهاجر.. من أين جاءْ؟!!

أنا من زمانٍ تآكل حتى غدوتُ

كقرطاس صندوق مُلْكٍ..

بسردابِ حالمةٍ بالرجوعِ

إلى زمن الأمراءْ..

رآني المقوقس ذات مساء على فَرَسي

أقطع البحرَ..

كان الشراع ردائي..

وكان الصهيل يشق السماءْ

فقال: سلوه

ولم يِسألوني..

وحين دنا الموج من دمعتين بعينَيْ جوادي..

رسمت على الماء بالقدمين انعتاقي

وكبّرتُ.. ثم رميت الرداءْ.

فضاع الشراع.. ومات الجواد..

ولكنّني لم أخنْ.. بل مضيتُ

إلى لجّة البحر، أصرخ:

يا فرسي.. يا ردائيَ.. أين الوفاء؟!!

أنا ابن أبي، والسوار الذي غرق الأمس كان لأمي..

هبوني انثنيت.. فما لذة العيش للضعفاءْ؟

خرافيةٌ من زمان الأساطيرِ

كانت على ضفة التيتّم تنظر نحوي..

وتلقي جدائلَها..

وتقول: تعلّق إليّ.. إلى شاطئي..

لا تعد للوراءْ..

و ما اسمكَ؟

قلت: المهاجر والبحر والهضبات وسرّي

فقالت: عرفتك من شامة في العيون

ومن نظرة كمساء الشتاءْ..

فمن زبد البحر جئتَ إليَّ

عتيقاً كصفصاف جدّي

عنيداً كقافية من قوافي الهجاءْ

فقُصَّ علي القصيدة تلك التي قلتها

في مدائن كسرى قريباً من الهندِ

جنب خرائب بابل..

قلتُ:

ولدتِ على قاب قوسين من فجر يومٍ..

وبين الظلام وبين الضياءْ

فكنتِ تداخل أضداد ليلٍ وصبحٍ..

أسميكِ ماذا؟

الظلام البهيم.. أسميكِ؟

أم نفساً من ضياءْ؟!!

فقالت: تبسم قليلاً..

وها.. سمّني ما تشاءْ..

فمالت إلى جهة الشرق مالت قليلاً..

وقالت تتمتم بعض كلامٍ

وقد أجهشت بالبكاءْ..

فقلت الإلهات ماتت.. وفينوس في رئتي..

زبد البحر هذا.. وهذي أثينا.. ونحن ولدنا

هنا من بقايا كتابٍ

بعصر الهراءْ..

فهاتي يديكِ.. وسيري معي

في دروب البداية نحو الفناءْ

وحين ستلمس كفك كفي..

سيبدأ عصر جديد

على بابه:

زمن العظماءْ.

كانت تبحث عن نفسها في القصيدة، تقلي الكلمات.. وتتساءل:

ومن فينوس هذه؟!!

وماذا يقصد بزيد البحر؟

أيعنيني أنا؟

أيعني أن الزبد يذهب جفاء، ولا ينفع؟!!

ثم ما معنى أنه من زمان تآكل؟

أيقصد الزمان الذي كنا فيه معاً؟

كانت الأسئلة تلتف حولها، فتتشرنق فيها.. ولم تستطع أن تتمالك نفسها فبكت.. وهمست لها عبير في أذنها:

– كل هذه الشاعرية يا خالة؟ الآن عرفت من أي أرض

ينبع نهر شفافية غريب.

وابتسمت للهامسة...

أما غريب فإنه كان غائباً في الكلمات والملامح.. يتأمل الرجل القادم على صهوة الكلمات، فيكاد يجزم أنه أبوه، ويعود ينقض جزمه ذاك بالشك والاحتمال..

قصيدة.. اثنتان.. ثلاثة.. ومرت ساعتان.. وجاء الختام.. قصيدة الختام..

وكان غريب قد ارتخى في كرسيه مُتعباً بالأسئلة ترفعه من الاحتمال تلّة، ويخفضه واد... ودوت في أذنه القصيدة التي يعرفها، والتي أعطته إياها أمه منذ مدة قريبة..

منذ عشرين سنة..

لم يصدقْ.. وانخطف كالملسوع.. فلعله توحُّدُ المطالع.. ويزيد الشاعر:

وأنا أكسر أبناء الدعاوى

تحت أقدامي تباعاً

تافهاً بعد ذليلْ..

كاد يصرخ...

أيناديه الآن، يعرّفه بنفسه... إنه هو أبوه.. فكيف صعُب عليه الربط بين سعيد ومهاجر.. والسعيد يفقد حقيقة السعادة

في اسمه إذا هاجر، وآنذاك فهو مهاجر لا سعيد.. مهاجر وكفى.. وأدركت أمه أنه عرف..

التقت عيناها بعيني ابنها.. ورأت فيهما الدهشة، ودموعَ قامة متعبة وجدت أخيراً جبلاً تستند إليه.. رأت فيه غصناً يعثر بعد طول جفاف على جذعه.. على شجرته التي كُسر منها...

ورفع الشاعر يده اليسرى بإحدى المقاطع، فرأت فيه خاتماً.. أحست بالطعنة المسمومة تخترقها.. لكنها راحت تقنع نفسها بأنه تختّم السُنّة، لا خاتم ارتباط، لكن أتراه باقياً دون زواج إلى اليوم؟

ثم أترى زوجته الجديدة لن تصر عليه أن يحمل في بنصر يده اليسرى خاتمها تماماً مثلما ألحت عليه هي ذاتها ذات يوم أن يحمل خاتماً يبعد عنه أعين الأوانس والعوانس.. ؟!! ثم لماذا هي اليوم تبني كل هذه الجبال من الأفكار على خاتم كان يراه هو من البدع ويؤكد لها أنه يضعه سُنّة لا غير... غير أنها لم تستطع طرد تلك الأفكار من رأسها...

كانت تحبه وتغار عليه، وحاولت أن تجد له عذراً في الزواج إن هو تزوج، فلم تكد تعثر له من ذلك على شيء، وقررت أن تقترب من المنصة عند نهاية الأمسية لترى موقعها من الإعراب في أصابعه، وحين فعلت ذلك بعد دقائق.. لم تعثر سوى على خاتمها الذي كانت ألبسته إياه ذات يوم.. هو ذاته لم يغيره.. وذهل وهو

يراها فجأة تقترب منه تتأمل الخاتم، وحين رفعت بصرها إليه سعيدة بما توصلت إليه من الحقيقة في يسراه.. ابتسم للجنون القديم الذي كان يعرفه فيها.. جنون غيرتها وإصرارها رغم كل شيء على أنه لها هي فقط دون غيرها..

وفي نظرة عجلى، انسكبت في المسافة الواصلة عيونهما أنهارٌ من اللوم والعتاب والرحمة..



جالساً كان.. وقد أحس نفسه جزءاً من الكرسي.. حملق فيهما من بعيد دون أن يستطيع الحراك.. ولم يكن يستطيع استيعاب كل هذا دفعةً واحدة... ولم تتجرأ عبير على أن تقتحم عليه لحظاته تلك...

كانت تعليقات المنصرفين من القاعة تجمع على أن الأمسية كانت متميزة.. بعضهم توجه إلى المنصة مؤْثرا رؤية الشاعر عن قرب... ولم يكن الشاعر في وضع يسمح له بتلبية كل طلبات المحيطين به، فهذا كان يطلب منه رقم هاتفه.. والآخر يريد معرفة مكان نزوله، ليتسنى له لقاءه بعد ذلك، وأخرى تعطيه إحدى مجموعاته طالبة توقيعه عليها.. ورابع.. وخامسة.. وآخرون غيرهم...

وحده غريب من حطمته المفاجأة.. وأضحى عاجزاً عن القيام إلى أبيه.. كان طوال الأمسية يتأمل وجهه يحاول مطابقته مع الوجه القديم الذي يحتفظ به في ذاكرته.. وفعلتها القصيدة الأخيرة، فكشفت الستار، وأذابت ثلوج الشكوك والاحتمالات، فبدا المرج كما هو، بكل تفاصيله اليقينية.

ورغم أن الشاب لم يغادر مقعده، فإن روحه كانت قد سبقته إلى النورس المهاجر العائد، ترفرف فوقه، وتشم روحه، وتتسلل إلى داخل معطفه، كعصفور مبلل هارب من العاصفة يطلب الدفء والأمان والدعة. وأصبحت القاعة شبه فارغة...

وما زال المعجبون يحيطون بشاعرهم بطلباتهم.. وكان يُلبي قدر استطاعته ما يطلبون... ورغم إلحاح المنظّمين في المغادرة به إلى الفندق، فإنه كان يصر على أن يظل دقائق أخرى.. فهو ليس شاعراً برجعاجياً، يطل على جمهوره من خلال النوافذ العالية للقلاع المستورة، ليلقي قصائده، إنه ابن فلاح، عاش صباه في حي شعبي يخوض سكانه شتاءً في الأوحال إذا خرجوا من بيوتهم... ولما لم يعد في المنصة مَن تمتد له يد، أو تتحرك له شفة بطلب، التفت إليها وقال في لهفة:

– أين هو؟

تنهدت، وهي تشير إليه جالساً على الكرسي ينظر إليهما... وفي لحظة احتوشته كل الأفكار السيئة، أهو كسيح مُقعد؟

وإذا لم يكن كذلك فلماذا لا يأتي للسلام عليه.. ؟

أيكون اللقاء لا يعني له شيئاً البتة؟!!

كانت الأعين قد تلاقت من بعيد، وكانت عبير إلى جانب أم غريب، واقفة تبكي، وقد أدركت الحقيقة.. ووضع الوالد محفظته الصغيرة على الطاولة أمامه، ودون أن يرفع بصره عن ابنه، جر قدميه نحوه نازلاً أدراج المنصة، ثم مرتقياً أدراج القاعة... كانت المسافة بينهما طويلة... وما إن اقترب منه حتى رأى في عينيه دموعاً ولهفة تقصُرُ القدمان عن السعي بها.. كان مثل طفل كسيح معوّق لا تقوم به رجلاه، يرى لهْوَ

الصغار وجريهم ولعِبهم أمامه فيستخف ذلك قلبه، فَيَهمٌّ، ولكن ثقل رجليه.. يحرمه حُلمه.. ويقتل في قلبه مراده، فيستسلم لقدره... وكذلك كان غريب... عيناه مملوءتان دموعاً... وقلبه استحال طائراً يرفرف في قفص ثقيل لا يستطيع نقله معه إلى حيث يريد الطيران...

واقترب منه أبوه.. كل خطوة بألف يوم... كانت المسافة بينهما تختزل أحقاباً من الاغتراب والشوق والفراق والعذاب والظلم... وحين لم يبق بينهما سوى مقدار خطوتين أو ثلاث ارتمى الوالد يحضن الكتلة الجامدة التي أجهشت بالبكاء تفرغ قهر السنين... كان العتاب بلا لسان.. ولعل حواراً صامتاً دار بين الاثنين آنذاك.. أحسه المحيطون بهما...

عتاب بين قلبين خُلقا من عجينة واحدة... مزقتها الأيام شقين... تباعدا ظلماً.. ولأن الحياة ترفض الفراغ، خاصة في مواقف كهذه، فلابد من عتاب صامت.. وتناجى القلبان في تعانق الجسدين:

– الحياة قاسية.. فلماذا تركتني لقساوتها يا أبي؟

– كانت العاصفة أقوى من الشراع، وتحطَّمَ القارب الذي كان يجمعنا... وفي قهر البحر والموج عذري يا بني..

– اعذرني يا أبي لأني لم أستطع القيام إليك.. أحسني الآن محطماً.. هل تفهمني يا أبي؟!!

– وهل يفهم عما يتحدث الجريح من الألم غير الجريح مثله؟!!

– ألومك يا أبي.. أعاتبك.. لقد قهرتني الأيام لو تعلم..

– وما يملك المحترق على السفود لمحترق جنْبه على السفود ذاته سوى أن يتألم بدل الألم ألمين.. ؟!!

– وأنت تعبت يا أبي أليس كذلك؟!!

– لغيرك لم أكن لأبوح.. لكنك ابني.. فانظر إلى قلبي تجد الرماد.. لقد تعبتُ يا حبيبي، وأنت؟

– وأنا تعبت يا أبي؟

– غريب.. يا أحسن قصيدة في هذا المساء.

– أبي.. يا أروع نورس تقطر جراحه شعراً.. ؟!!

قالا كل ذلك دون أن تتحرك شفاههما بكلمة، وازداد عناقهما.. ثم أخذ الوالدُ وجه ابنه بين راحتيه، وأبعده قليلاً مقدار امتداد ذراعيه، ليتسنى له رؤيته أفضل، كانت أم غريب وعبير تذوبان في المشهد كشمعتين منطفئتين قريبتين من اللهب... وعلى جبين الولد رسم الوالد حرارة شفتيه، وهو يقول:

– أحسن قصيدة أنت في هذه الأمسية..

وابتسم الولد.. فأخذه أبوه من يده يخرجه من بين المقاعد

إلى الرواق الجانبي للمدرّج.. وأحسهُ متعباً فعلاً لا يكاد يحسن المشي من أثر الصدمة... كان السؤال المعلق المتدلي من القلوب المعذبة آنذاك هو:

– والآن... ؟

من كان يملك الجواب؟ الأب، أم الأم، أم غريب.. ؟

كان الصمت المدهش يملأ جو القاعة، وقد وقف المستضيفون والمنظّمون يراقبون المشهد من بعيد، وقد خطفت المفاجأة قلوبهم فبكى بعضهم... وقد تأثّر جميعهم...

وقالتها عبير:

– والآن؟!!!

فتح السؤال فجوة في السد... وتلاقت العيون في نظرات سريعة..

– الآن... ؟!!! الآن.. قال الأب نذهب جميعاً لنتاول العشاء في الفندق حيث أقيم.. واستأذنت عبير، كونها لا تستطيع التأخر عن البيت أكثر، ولأن أباها ينتظرها في الخارج حسب اتفاق بينهما، وفي لحظات كانت السيارة السوداء تتلألأ تحت الأضواء قاصدة الفندق.

كان في حلقها سؤال، يقترب من لسانها، ثم يتراجع... تريد أن تسأله عن أمه العجوز وتحجم خوفاً من ظل السؤال في جوانحه.. فهل سيقول لها: الآن جئتِ تسألين عنها، بعد أن

عاشت سنوات سجني وحيدة لا أنيس لها ولا معين بعد الله تعالى؟!!

لكن ما عساها كانت تفعل، وقد مُنِعت بقسوة من زيارتها، وزيارته في السجن.. وحتى إذا فكرت في زيارتها والسؤال عنها فمن كان سيرافقها إلى تلك المدينة البعيدة التي تقيم فيها؟!!

كان الجرح جرحاً للجميع، تقاسموه، كلٌّ حسب موقعه، ومساحة قلبه... اخترقوا الممر الواسع للطابق الرابع في فندق الشيراتون.. وتوقف أبو غريب أمام باب الغرفة ٤٢٣... وحُبست الأنفاس أمام انفتاح الباب على أحد احتمالين، كلاهما كبير..

كان تفكير غريب لا ينقطع في جدته، تلك العجوز التي كانت تنومه إلى جانبها صغيراً، وتقص عليه من خرافاتها وأساطيرها ما يأخذ بلبّه. كان يحس بقايا حنانها على أطراف أصابعه، وفي خديه... تضعه على ظهرها، وتمشي به، تقرّبه من أغصان الحديقة، فيلتقط زهرة من هنا، وورقة من هناك... وانشق الباب عن وجهها... كانت تبكي لأنها أحست أنها في المدينة ذاتها التي يتواجد فيها حفيدها... تتنفس الهواء نفسه الذي يتنفسه.. غير أنها ليست قادرة على رؤيته.. ومنذ خروج ابنها إلى أمسيته الشعرية في المساء، أطلت من خلال النافذة تلقي نظرة على المدينة،

وتبعث إلى البيوت بدفقات حنان من عينيها ، فربما يكون في إحداها غريب..

وفاجأها الموقف.. ولم تفكّر لتعلم أن القادم مع ابنها هو حفيدها ، فلقد كان وجود أمه دليلاً على مجيئه هو أيضاً.. وارتمت أم غريب على صدر العجوز تبكي بلوْعة... وبكت العجوز وهي تحتضنها... كان اللقاء استثنائياً.. شبيهاً بتلاقي حروف كلمة واحدة بعد طول تناثر في متون متباعدة متراصة في مكتبة الحياة.. حين انتهى عناق المرأتين.. كانت عينا الجدة تنزرع على وجه الحفيد رحمة، تبحث فيه عن طفل صغير، أبعدته عنها ذات يوم الأيدي الظالمة القاسية.. وتذكرُ.. حينما كان خاله يخرج به وهو يمد ذراعه نحو جدته يبكي..

ومدت جدته حينها ذراعيها إليه، وحال بينهما الظلم، وبين غلالات الدموع على الأعين افترقت الوجوه الطيبة.. قدراً كان ذلك..

مدت الجدة يديها إلى وجه غريب تتلمسه، أنفه، عينيه، فمه، ذقنه، تماماً كما يتلمس ضرير قطعة نقود.. كانت تبكي.. يزداد بكاؤها مع كل لمسة.. كانت كأنها تريد التيقن من أن هذه القطعة النادرة التي أمامها هي ذاتها التي فقدتها ذات مساء...

وأقبلت عليه تضمه، تزرعه قبلات.. وهي لا تكف عن التلفظ باسمه..

– غريب... غريب... غريب..

وبكى الشاب، وهو يجيبها بحرقة:

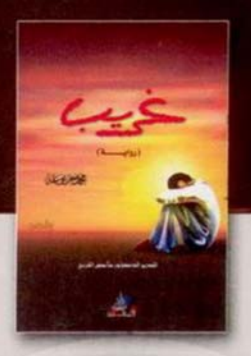
جدتي الحبيبة.. لن نفترق بعد اليوم، أليس كذلك؟.. لن أتركك.. لقد تعبتُ يا جدتي.. حطمني الظلم.. ارحموني فإذا لم ترحموني أنتم فمن يرحمني.. ؟!!

كان رأس غريب وهو يقول ذلك على صدر جدته، وقريباً منهما كانت يد أمه تعبث بالخاتم في بنصر أبيه اليسرى، ثم تستند إلى كتفه، كشجرة أتعبتها الرياح والعواصف في قفار الظلم.

وبعيداً من ذلك، كانت عبير تستعيد أحداث لقاء قريب من المستحيل.. وتمنّي نفسها بلقاء دون فراق... وأمامها ارتسمت صورة غريب بعينيه الدامعتين...

قصيدة رائعة.. ابتدأها أبوه وأكملتها الأقدار..



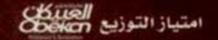


تهزه الكلمات من الداخل، ويسرح بخياله يستعيد وجه الرجل الذي كان يراه عظيماً كجبل...

يحمله بين يديه ويرفعه إلى أعلى... كان السرور المشوب بالخوف من الوقوع يغمره، يأخذ عليه مجامع نفسه.. يحس نفسه طائراً يسبح في الفضاء الرحب، فيضحك... وحين يُنزله، كان يتشبَّث بثيابه يطلب منه أن يرفعه مرة أخرى إلى عالم النشوة.

لكن الأب يهرب جاراً وراءه سنواته الخمس والثلاثين فيجري وراءه هو تحمله سنواته الخمس.. يتذكر كل ذلك وتنفرج أساريره عن ابتسامة قديمة تستخرجها شفتاه من كيس ذكرياته، تماماً كما يستخرج شخص ورقة متآكلة من صندوق عتيق عزيز عليه.

ردمك: ٣ - ٠٤١ - ٥٤ - ٩٩٦٠

امتياز التوزيع 

الرياض - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة - هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤

فاكس: ٤٦٥٠١٢٩ - ص.ب ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

www.obeikanbookshop.com